الفصل الثالث

فساد المجتمع وضرورة التغيير

فساد المجتمع وضرورة التغيير

فى الفصل الثانى من هذه الدراسة عرضت صورة النموذج الأمثل للمجتمع الذى يمكن إقامته، وفق الضوابط والمعايير القرآنية، وحددت القسمات الأساسية التى يقوم عليها، وجميعها مستقاة من إشارات القرآن الكريم وتوجيهاته.

ورغبة فى تذكير القارئ الكريم بها ألخصها ـ فقط ـ بعناوينها وهى :

* أن يكون «التوحيد، ونفى التأليه» عن أى شئ أو شخص هو سقف هذا المجتمع.
* أن يكون دفع الحق للباطل وللإفساد فى الأرض محور حركته الدائمة.
* أن يكون إعمار الأرض بمعانيه المختلفة غاية ووسيلة.
* أن يكون أمر الناس فيه شورى.
* أن تتواصل علاقات أجزائه على مثل صورة الجسد الواحد الذى جاء فى الحديث الشريف المشهور.

* * *

وإذا كانت تلك قسمات المجتمع الأمثل كما رسمها القرآن الكريم فمن المسّـلم به أن **تخلّف ـ أو افتقاد ـ أى قسمة منها إنما يعنى افتقاد ركن من أركان البناء يهدد بقية الأركان بالسقوط.**

بيد أن ثمة عوامل أخرى ـ فى داخل المجتمع نفسه ـ تسرع بانهياره، مثل:

علاقة المجتمع بحكامه بين القهر والحرية.

وعلاقة أفراده بزينة الدنيا بين السفه المترف وبين التوازن.

وعلاقة الشرائح المستقيمة المتوازنة فيه بالشرائح المنحرفة بين التقويم أو الانجراف معهم فى تيار فسادهم... الخ.

وفى مقدمة هذه العوامل جميعا **غيبة المنهاج الذى يحدد للأمة فى هدى القرآن والسنة غاياتها ووسائلها لتحقيق هذه الغايات بحيث لاتنحرف ولاتضل الطريق.**

فكل هذه العلاقات يكون لها أثرها السلبى فى تحلل المجتمع من داخله، وانزلاقه إلى هاوية السقوط، على ما سنعرض له فيما يلى:

* * *

١ - غيبة المنهج وأثرها فى فساد المجتمع:

فأما عن غيبة المنهج ـ كما سبق ذكره فى الفصل السابق ـ وأثرها فى فساد المجتمع فلا أظنها بحاجة إلى بيان، وهى من المسلمات التى يكاد يعرفها حتى الزارع فى الحقل؛ فَلِكَىْ تنتج زراعته يكون

على دراية سلفا «بمنهاج» الزراعة كيف؟ ومتى؟ وأين؟ ومدى صلاحية الأرض وما تحتاجه من سقى وغذاء.. بحيث إذا لم تنجح الزراعة لايلوم إلا نفسه..

* * *

والأمر هكذا على مستوى الأمة التى حدّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ لها غاياتها ووسائلها كما سبق بيانه. فإذا حادت عن هذه الغايات وفى قمتها «ريادة البشرية» والسير بين العالمين «بالوسطية» فالنتيجة المحتومة دون ريب هى الضياع للأمة ولأفرادها وفق سنن القرآن التى أجملتها الآيات:

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾(١).

ومثلها قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(٢).

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

وقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾(١).

ومثل هذا كثير.

وخلاصته أن انحراف الأمة عن منهج الله نذير بسوء العاقبة فى الدنيا وفى الآخرة، وهذا ما عاناه ـ وما يزال يعانيه ـ عالمنا الإسلامى الذى تمزقت وحدته يوم غفل عن قول الحق سبحانه :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾(٢).

* * *

وكانت غفلتنا وإهمالنا للأخذ بمعطيات المنهج القرآنى مقدمة لنتيجة حتمية هى دخولنا فى حالة «جَزْر» سياسى واقتصادى واجتماعى رهيب، ففقدنا ريادتنا، ولم نعد نملك حتى الاستقلال بقرارنا فضلا عن أن يكون لنا رأى أو قرار فى توجيه سياسة العالم.

واضطربت أحوالنا الاقتصادية بحيث ذهبت مصادر ثرواتنا وإمكاناتنا غنيمة سائغة لأعدائنا، يبسطون عليها سلطانهم ويوظفونها بما يخدم مجتمعاتهم هم ومصالحهم. فى مثل حالة الوصىّ اللئيم

(١)سورة الزخرف ، الآيتان : ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠٣.

على مال اليتيم، وتسربت إلى مجتمعاتنا غيلان الفقر والعجز والتخلف.

أكثر من هذا أنا فقدنا القسمات الأساسية التى هى ملامح المجتمع القرآنى كما ينبغى أن تكون، ودخلنا ـ غافلين تائهين ـ فى **نفق التبعية للآخرين، نعيش كما يعيشون، دون هويّة**، يجرفنا غزوهم الفكرى والثقافى إلى تبعية سلوكية واجتماعية بغيضة، وأصبحنا نعيش اليوم **عصر النبوءة النبوية** التى تحدث عنها الحديث النبوى المشهور:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» قالوا: أمن قلّة نحن يومئذ يارسول الله؟.

قال: **«لا. بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»** الحديث[1].

وعلّل الرسول ﷺ هذه الحالة بأنها نتيجة لما يسيطر على الأمة من «الوهن».

فلما سألوه عن «الوهن» ماهو؟ قال: **«حب الدنيا وكراهية الموت»**

* * *

وحيث من المعروف أن الإسلام لايعادى الدنيا ولا يأمر أبدا بأن

(١) أبو داود ٤٢٩٧ والإمام أحمد ٥/٢٧٨.

ندير لها ظهورنا، فالمراد هنا أننا ـ فى علاقتنا بهذه الدنيا ـ انحرفنا عن منهج القرآن فى التعامل المتوازن مع زينتها، **بحيث بات متاع الحياة الدنيا غاية، لا مجرد وسيلة لاستبقاء الوجود** كى نؤدى الرسالة وننهض بالواجب الضرورى الذى ناطه القرآن بنا كخير أمة أخرجت للناس.

والمحزن ـ والمؤسف معا ـ فى هذا أننا **بضعفنا المجتمعى أضعفنا عقيدتنا وأطفأنا بريق عظمتها**، وبعد أن كان الناس فى الماضى يدخلون فى الإسلام لمجرد أن يروا مسلما ملتزما يتعامل معهم فيجدون فيه القدوة والأسوة.

أصبح العالم كله خارج ديار الإسلام عندما نحدثهم عن عظمته ومزاياه وعطائه الحضارى يقذفون وجوهنا بذلك التعبير القاسى: **إذا كان دينكم هكذا ـ كما تقولون ـ فلماذا أنتم فى ذيل الأمم؟؟**

* * *

٢- انهيار مقاومة الأمة إما لجَوْرِ السلطان أو لتمكن العدوّ:

والأمم كالأفراد، إذا ضربت عليهم المذلّة تبخرت حيويتهم وانسلّت العزّة من نخاعهم، وعجزت الأعناق عن حمل رءوسهم فى وضع الشموخ والاستقامة، فتنحنى القامات وتخضع الهامات، ويتوارى العلماء والفضلاء، وتكون السيادة للأراذل والأسافل.

ولأن من بعض خصائص الأمة المسلمة المؤمنة أنها لا يمكن أن تعيش إلا عزيزة كما قرر القرآن.

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

ولأن من بعض خصائصها كذلك أن المؤمنين فيها هم «الأعلون» كما تقرر الآيات :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾(٣).

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾(٤).

* * *

أقول: لأن من بعض الخصائص التى أرادها الله للأمة المؤمنة أن تكون عزيزة عالية فإذا ضربت بجور السلطان أو جور العدو فأذلها صارت كالنبات إذا حيل بينه وبين الهواء، فمصيره الذبول ثم الموت.

* * *

ولذا نَفَّر القرآن الكريم من حال المهانة والاستكانة، وحذّر المسلم

(١) سورة المنافقون، من الآية : ٨.
(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣٩.
(٣) سورة النساء ، من الآية : ١٠٤.
(٤) سورة محمد ، من الآية : ٣٥.

من أن يكون فى موقف الاستضعاف أبدًا؛ لأنه لم يخلق له، حين قال :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾(١).

كما كان من سنن الله ـ تبارك وتعالى ـ أن تقف السماء بالمرصاد وبسوء المنقلب لكل المستبدين والمتجبرين ولكل الطواغيت وكل المفسدين فى الأرض، تقف السماء وتتدخل ببطشها بالجبارين فى حالة ما إذا استنفدت الأمة أسباب مقاومتها ثم عجزت، فهنا تتدخل السماء لتحسم الأمر دائمًا لصالح العدل والحق، كما تقرره الآيات الكريمة :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٢).

وما أنزل بالمفسدين والظلمة من عقاب تراه مبثوثًا فى مواطن كثيرة من القرآن الكريم تسهل ملاحظتها عند الحديث عن قوم نوح

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٧.

(٢) سورة الفجر ، الآيات : ٦ ـ ١٤.

ولوط وعاد وثمود وقوم تبّع وغيرهم ممن أُخذوا أخذة رابية. وممن دعانا القرآن الكريم للوقوف على أخبارهم حتى نطمئن ونؤمن باطّراد السنن الكونية فى **ضرورة تطهير أرض الله من كل المفسدين فيها**.

وهنا تصبح مقاومة الطاغوت واجب الأمة؛ ذلك لأن من سنن الله كذلك أن يكون للأمة دورها فى مقاومة الجور ومناهضة الفساد، ولابد أن تستنفد فى ذلك أقصى طاقتها أولا، فإذا لم تصل إلى غايتها كان لله مايقضى به وفق سننه كما أشرنا.

ولذا عاب القرآن استسلام قوم فرعون له وخضوعهم لجبروته فقال: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾(١).

كما أنذر الذين يلغون عقولهم ويسلمون قيادتهم للآخرين وإن كانوا على الباطل، فيقول واصفًا ماسيلقونه من العذاب: ﴿ **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ** ﴾(٢).

ومثلها قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً**

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٦، ٦٧.

﴿ فَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾(١).

* * *

ويسجل القرآن الكريم فى سورة سبأ حوارًا بالغ الدلالة على ما تلقاه الأمم نتيجة تفريطها فيما يجب عليها من تحرّى الحق والدفاع عنه، وعدم استسلامها لسادتها وكبرائها، فيقول :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾(٢).

ومثل هذا كثير

* * *

وللعلامة ابن خلدون فى «المقدمة» فصل عنوانه (**إذلال الرعاة للرعية وأثره فى عجزها**).. [المقدمة ص ١٤١] يضرب فيه المثل ببنى إسرائيل الذين استذلهم القبط (المصريون) فلما وقعوا طويلاً فى إسار هذا الاستذلال تحللت قدرتهم وعجزوا عن مباشرة أى أمر كبير حتى بعد أن تحرروا ونجاهم الله من فرعون وقومه.

ولهذا لما امتحنوا بدخول القرية قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ:

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧.
(٢) سورة سبأ ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢.

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾[1].

وقصة بنى إسرائيل وهذه القرية فى السورة نفسها بين الآيات: [٢٠ ـ ٢٦].

ويعلق الإمام ابن خلدون على ذلك بما معناه أنه إذا تم إذلال الرعية بما قضى على شخصيتها وحيويتها فإنها لا تصلح للنهوض بأى أمر كبير حتى ينقرض الجيل المستذلّ ويقوم جيل آخر مبرأ من هذه العاهة.

واستدلّ على ذلك بأن الله عاقب هؤلاء الْمُسْتَذَلِّينَ الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ ﴾ عاقبهم بالتّيه فى الأرض أربعين سنة، يرى ابن خلدون أنها الفترة اللازمة والكافية لقيام جيل آخر مبرأ من عاهة الاستذلال يكون هو القادر على التصدى للأمور الكبار.

هذا عما يقع للأمة من الدّمار إذا استذلّها سادتها؛ ولذا قال الرسول ﷺ: « **أفضل الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر** ».

* * *

أما إذا استُذلّت الأمة لعدوها فنتائجه معروفة: بلونا كلنا من ويلاتها الكثير الذى يعرفه الصغير مثل الكبير مما أنزله بنا المستعمرون والغزاة من الويلات. وللعلامة ابن خلدون فصل فى المقدمة عنوانه:

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٢٤.

(إن الأمة إذا غُلبَتْ وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفساد) [المقدمة ص ١٤٨].

وللعلامة عبد الرحمن الكواكبى كتاب قيم فى هذا الباب عنوانه.. **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)** يوضح فيه الأمراض والعاهات التى تبتلى بها الأمم حين يغلبها الطغاة فيقتلون كبرياءها ويستلون روح الكرامة والإباء من أعماقها؛ فتستسلم للمذلة وتعجز عن النهوض، ويموت أبناؤها وهم على قيد الحياة.. إلى جوار عاهات أخرى.

٣- وأما عن غلبة الترف والفساد وأثرهما فى انهيار الأمم :

فإنه إذا كان من سنن الله فى الأمم ـ كما سبق ذكره ـ أنه سبحانه يقف بالمرصاد للطغاة الذين يستذلون خلق الله، ويكونون من أسباب عجز الأمة المسلمة عن النهوض بما خلقت له. فيأخذهم الله بعذابه، ويستخلف من بعدهم آخرين تجد الأمم فى ظلهم طريقها...

فإنه سبحانه قد جعل «الترف» ـ الذى هو فى حقيقته إفراط فى الاستكانة لزينة الدنيا ومتاعها ومباهجها ـ إفراطًا يجاوز حدّ الاعتدال الذى قرره القرآن فى مثل قوله :

﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[1].

هذا الإسراف المترف، أو هذا الترف المسرف هو الذى حرّمه الله وجعله بعض سننه فى الإسراع بهلاك الأمم.

ذلك لأن المسرفين المترفين يكونون فى الأمم - غالبًا - موضع التأثير والتمكن، وموضع الاقتداء من المستضعفين والعامة، ومن ثم سيتكبرون على الحق ويعادون كل إصلاح على نحو ما عرض القرآن لنماذجهم فى قوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

ومثلها قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

* * *

وإذا كان القهر يكبت طاقات الإبداع فى الأفراد والشعوب حتى

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ٣١ ، ٣٢.
(٢) سورة سبأ ، الآيتان : ٣٤ ، ٣٥.
(٣) سورة الزخرف ، الآيات : ٢٣ - ٢٥.

يقضى عليها بالموت فإن الترف وما يستتبعه من **الاسترخاء والانغماس فى التنعم يفضى حتمًا إلى عاهات تخرج بالرجولة عن خشونتها وبأسها الذى هو عدتها للبناء وللكفاح ولمجاهدة كل باطل.**

وحين تفقد أيدى الرجال خشونتها ويستوى الذكر بالأنثى فى الرقة والطراوة فستفقد الأمة حماتها وتبيع كرامتها بل وشرفها حين ترى نفسها مضطرة إلى الاستظلال بحماية الآخرين، مما تقع به النهاية الفاجعة التى سجل التاريخ الكثير من نماذجها المخزية على أرضنا السليبة فى «**الأندلس**» ومثلها فى أوربا وغيرها، ودفع الإسلام العظيم ثمنها الفادح على أيدى «**ملوك الطوائف**» بين شرق وغرب.

* * *

ولأن للترف هذه النتائج المهلكة فقد جعله القرآن الكريم من أسباب الحكم بعدم صلاحية من يبتلون به لمتابعة المسيرة الجادة للحياة، بل **أصبح من سنن الله أن يهلك المترفين** على نحو ما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾(١).

وقوله تعالى :

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٦.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾(١).

وقوله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾(٢).

وللعلامة ابن خلدون فى المقدمة فصل عنوانه (**إن من عوائق الملك حصول الترف والانغماس فى النعم**) وله حديث عن أثر الترف فى ضعف «التدين» فلينظر فى موضعه لمن شاء من **«المقدمة»**.

* * *

ثم لأن الترف هو الثمرة الفاسدة لوفرة الغنى والثروة فى أيدى بعض شرائح المجتمع أو بعض أفراده فإن الإسلام فى هذا الأمر - أمر العدالة الواجبة فى تقرير حق انتفاع كل عباد الله بما أنزل لهم فى أرضه من رزق بموجب قوله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** ﴾(٣).

للإسلام فى هذا الأمر حديث طويل ليس هذا مقامه(٤). . لكن

(١) سورة النحل ، الآية : ١١٢ .
(٢) سورة القصص ، الآية : ٥٨ .
(٣) سورة الجاثية ، من الآية : ١٣ .
(٤) تحت الإعداد الآن دراسة عن «المال وشئونه فى القرآن الكريم» للمؤلف.

ثمة نموذجًا بعينه ضربه القرآن مثلا لما يمكن أن يصنعه الغنى الفاحش من آثار مدمّرة فى حياة الأفراد والشعوب إذا لم تحكمه الأطر والضوابط الشرعية التى تمضى به لخدمة الناس دينا ودنيا.

والنموذج المشار إليه هو ما جرى التعارف على وصفه بالنموذج «القارونى» نسبة إلى ثالث الثلاثة الذين أفسدوا فى أرض الله فرعون وهامان وقارون.

* * *

ويستوقفنا فى هذا النموذج **الضبط القرآنى المتوازن لما ينبغى أن تكون عليه علاقة الإنسان بالمال يأخذ منه حاجته دون سرف ولا ترف، ثم يؤدى شكر الرازق المنعم طاعة وإصلاحًا** فى أرض الله دون بطر ولا استعلاء.

لكن المال فى يد «قارون» كان فتنة له حتى زعم أنه رازق نفسه وأنه الذى صنع لنفسه ـ بعلمه - ماهو فيه من الغنى، فلماذا يقدم لله واجب الشكر؟! وذلك على ما قررته الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ

يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾(١).

* * *

ولو كان انحراف «قارون» يجوز اعتباره انحرافًا فرديًّا نتج عن «الغرور» الذى يصيب الكثيرين حين يحالفهم بعض توفيق الله فينسون الله وينسبون إلى أنفسهم وإلى عبقرياتهم كل شئ.. فربما لم يستوجب هذا النموذج «القارونى» ما عوقب به من الإبادة والخسف..!!

لكن الذى استوجب هذه العقوبة الحاسمة واستوجب إقصاء وتغييب هذا النموذج من الحياة كلها ما كان يسببه.. بل **ما سبّبه بالفعل فى الناس حوله من اهتزاز إيمانهم، وتطلع فريق منهم إلى تمنى مثل ما أوتى قارون**، بما يمكن أن يؤدى إليه مثل ذلك من فساد، وهذا ما سجله القرآن الكريم فى قوله:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِه فِى زِينَتِه قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا

---

(١) سورة القصص ، الآيات : ٧٦ ـ ٧٨.

الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾[1].

* * *

النموذج «القارنى» قد خُسِفَ به، أى قد أزيل من الحياة؛ لأنه نموذج مفسد يعترض المسيرة الصالحة والخيِّرة، فكان لابد من إزالته؛ ولذا كان من رسالة هذه الأمة أن تواجه الفساد فى حياتها أولاً بأول، وأن تحاول دائمًا تصحيح مسارها صوب الإصلاح وصوب الحق والعدل.. وأن تمارس تغيير الواقع الفاسد بما يصلحه وفق سبل التغيير التى نعرض لها مؤسسة على سنن الله وقوانينه كما سيأتى.

* * *

٤- النفاق والإفساد الأكبر للمجتمع :

بحسب «النفاق» سوءًا أنه **الصفة الفارقة بين الإنسان والحيوان، فالحيوان صادق إن غضب أو هدأ، وصادق إن هاج أو سكن**، أما المنافق فقد يظهر الرضا ويبطن الغضب، ويظهر الحب ويبطن الكراهية.. فهو بخلائقه هذه شر من الحيوان وأدنى منه منزلة.

والمنافقون شر عباد الله على دين الله، وأخطرهم أثرًا فى تعطيل المسيرة السويّة للمجتمع، وهم البطانة السيئة التى يبتلى بها «الحاكم»

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٩ ـ ٨١.

فيزينون له الباطل ويحملونه عليه، ويفسدون فى الأرض بأكثر مما تفسد الأوبئة والحروب.

ولقد كنت فى شبابى البعيد أتمنى على ربّى لو أن الكلمة إذا صدرت عن لسان المنافق تصاب بالخرس فلا تخرج حتى يتقى الناس بلاءها، من كثرة ما كنت ألحظ من نماذجها ومن بشاعة تدميرها لكل موقف عظيم وكل معنى نبيل وكريم.

* * *

وإذا كنا نرصد نماذج المفسدين فى المجتمع فأهل النفاق دائما أبشعهم وأقبحهم وأخطرهم وأشدهم إفسادًا للحياة والناس، ذلك لأنهم كما حكى القرآن.

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[1].

* * *

وحسب المنافقين سوءًا وحسبهم من الشر فى أى مجتمع يكونون

(١) سورة البقرة، الآيات: ٩ ـ ١٥.

فيه أن ينزل الله ـ تبارك وتعالى ـ سورة فى القرآن تحمل اسمهم وترصد خلائقهم من الكذب، والخديعة، وفراغ أفئدتهم من الإيمان، فأفئدتهم هواء. ثم بحسب أهل النفاق من الشر أن يقول الحق لرسوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

ولخطر أهل النفاق على المسيرة الراشدة للمجتمع ولمظاهرتهم للسلطان وإن جار، ولكل ذى قوة ونفوذ فى مجتمعه فقد فصَّل القرآن فى وصف خلائقهم، فنراها مبثوثة فى آيات كثيرة غير السورة التى تحمل اسمهم، ثم السورة التى تسمّى بالفاضحة (التوبة) لما فضحت من خلائقهم التى كانت كافية لأن تدمّر المجتمع الإسلامى فى مهده لولا ما كان «الوحى» يكشفه للرسول ﷺ من أمرهم فيأخذ حذره ويدبّر أمره.

أما فى عصرنا فعسير كشف نماذجهم، ومن ثمَّ يكونون أخطر ويكون التحذير منهم أصعب وأشق، وهذا ما يوقع على كاهل دعاة التغيير والإصلاح عبئا أثقل، ويستوجب الحذر المضاعف من السقوط فى شباكهم.

* * *

ومن الثابت تاريخيا أن معظم أنواع الفساد التى أصيب بها المجتمع الإسلامى فى مرحلة الجزر السياسى للأمة **كان لأهل النفاق**

(١) سورة المنافقون، من الآية : ٤.

فيها أخطر الأثر، بما كانوا يزينونه للحاكم من السوء، ومايلوون به ألسنتهم فلا تنطق إلا بالباطل والكذب والزور والخديعة.

وإذا كنا ـ فيما سبق ـ قد أشرنا إلى أن «النفاق» نتيجة حتمية للاستبداد والطغيان فإن ذلك لايصادف إلا ذوى الأفئدة الهواء، وذوى النفوس الفارغة من أسرار «الإيمان».

أما أهل الإيمان، ذوو الأفئدة المليئة باليقين والثقة بما عند الله القاهر فوق عباده فإن محاولات الإذلال لا تخضعهم أبدا ولاترمى بهم فى مستنقع النفاق، وإن احتزّت السيوف رءوسهم، أو تأرجحت أحسادهم على أعواد المشانق.

بل إن هذا الابتلاء يوهج اعتزازهم بالحق، ويصهر معادنهم فيتوهج فيها الإباء والاعتزاز والشموخ، فيجهرون بكلمة الحق فى وجه السلطان الجائر، ولايخشون فى الله لومة لائم. وأولئك وحدهم هم جنود التغيير والقادرون عليه، وأولئك وحدهم الذين أكثر القرآن الثناء عليهم ووقف التاريخ طويلا يمجّد ذكرهم ويشيد بمواقفهم..

* * *